العواصم والقلاع في العصر البرونزي الحديدي

في سورية وعلاقاتها مع اليابسة والمياه

للاستاذ فاله ليري

تعريب : فيصل الصيرفي

١ ـ مقدمة

عرف العصر البرونزي في سورية ، على غير ما كان مألوفاً في العصر الحجري الحديث الذي سبقه ، عدداً من التجمعات البشرية العامة ، سميت (دول المدن) ، وهي مجموعة من العواصم والقلاع والمدن والقرى تشكل فيما بينها وحدة اقتصادية مستقلة . إن وجود دول المدن هذه معروف لاشك فيه ، إلا أن النصوص الأدبية درجت على أن تعزى وجودها إلى أسباب سياسية حضارية وأسباب عسكرية . ولكنني في هذا المقال سوف أعمل على عدم الأخذ بهذا الرأي شارحاً الأصل الذي انبثقت عنه هذه المدن ودول المدن وهو البيئة الطبيعية . بيد أنني لن أعمد في هذا المجال الى القيام بدراسة مفصلة عن علاقة انسان العصر البرونزي بكل ماحوله ، ولكني سأبحث في ناحيتين هامتين فقط هما التربة والماء .

لقد كان سكان المدن والقرى في العصور قبل الكلاسيكية مزارعين ورعاة ، ولم يكونوا تجاراً وعسكريين اذا استثنينا منهم سكان بلاد آشور . وكان المزارع يعيش قريباً من حقوله ومراعيه . (والشكل ١) يظهر لنا العلاقة الوثيقة بين دول المدن والأراضي الخصبة .

وهذه الأخيرة هي مناطق محددة تقتصر على وديان الأنهار وأحواضها . إلا أن توفر

الأرض الخصبة لايكفي وحده لإعاشة نسبة كبيرة من السكان ، وإنما يتطلب إلى جانب ذلك سهولة الاستفادة من المياه ، لذلك فقد اقتصر وجود دول المدن على الأماكن القريبة من مجاري الأنهار وعلى الهضاب التي لايزيد فيها عمق المياه الجوفية على (٢٠) متراً . والظاهر أن وسائل الحفر في العصر البرونزي لم تكن كافيـة للوصول إلى أعمق من ذلك ، وليس لدينا مايدل على حدوث تغيير ملموس في المناخ بين العصر البرونزي وزمننا هذا .

وفيما عدا هذه الأحواض الخصبة المروية ، فإن القسم الأكبر من سورية يتألف من مرتفعات وهضاب صخرية وصحارى . ولم تكن هذه الأماكن لتضم أكثر من قرى متفرقة يسكنها بعض الصيادين كما هو الحال في الجبال المكسوة بالغابات في غربي سورية ، أو بعض الرعاة كما هو الحال في الصحراء .

وكانت مملكة ماري والمملكة الآرامية في دمشق (آرام - دمشق) هما الوحيدتان اللتان كانتا تعتمدان كلياً على الري في زراعة أراضيها ، وربما أخذتا ذلك عن البابليين . أما سائر المناطق فكان اعتمادها على الري ثانوياً ، وذلك لسقاية الحقول الخاصة بالأشراف وتزويد مائدتهم بما تحتاج إليه من فواكه وخضار . أما بالنسبة لسواد الشعب فكانوا يعتمدون على زراعة الأراضي البعلية فقط . وباستثناء الساحل الفينيقي ، فقد كانت تمر على البلاد أحياناً سنين عجاف تسوء فيها المواسم ، أو قد تصاب ببعض الكوارث . ولقد تبجح (كلامو) ملك بلاد شمعال Sam'al التي تقع في منطقة ترتفع فيها نسبة هطول الأمطار ، بأنه عمل على زيادة خصب أراضيه فامتلأت بقطعان الماشية وبالفضة والذهب ، بينما كان الأمر على خلاف ذلك في العهد الذي سبقه أيام والده وأخيه (١) .

كما أن (برغعاية) Barga'ayah ملك Ktk الذي فرض عقد معاهدة مع ماتيعيل Mati'el ملك أرباد ، يقول بأنه إذا لم يتقيد ماتيعيل بشروط المعاهدة ، فان أرباد سوف يصيبها القحط وتصبح صحراء تحوم فيها الغزلان وأبناء آوى والقطط البرية .

وتشير نصوص ماري الى أن سكان زلتوهان Zalluhan في الجزيرة العليا اضطروا الى هجر أراضيهم على أثر سني القحط الثلاثة التي مرت بهم بسبب أسراب الجراد .

(١) من أجل المراجع والاستشهادات ، يرجى مراجعة القسم الأجنبي من المجلة .

تلك هي أحداث الزمان التي كانت تصيب سورية الداخلية . تزايد في عدد السكان وقلة نسبية في الامكانيات . ولم يكن المرء ليتوقع أن تكتشف في المستقبل حضارات جديدة عظيمة ، تذخر عواصمها بالثروات نتيجة للتطورات المحلية (١) . وقد ذكر الاستاذ أندره بارو في مؤلفه عن سومر أن غالبية عواصم الحضارات الكبرى قد تم كشفها حتى عام ١٩٦٠ ، ومع ذلك ، فإنه لاتزال توجد في سورية ، كما يظهر في الخارطة ، الكثير من المراكز الحضارية والعواصم والقلاع التي تعود لممالك « دونها في الأهمية » لم تمسسها المعاول بالحفر ، ولا تزال أمام علماء الآثار أعمال كثيرة تنتظرهم لعدد من الأجيال القادمة ، وأرجو أن تتوج باكتشاف عدد من المواقع الهامة على الأرض السورية أمثال : شباط أنليل Subaat enlil ، عاصمة آشور أيام الملك شمشي عدو Shamshi - addu وواشوكاني عاصمة المملكة الميتانية ، وأرباد عاصمة المملكة الآرامية خلال سلالة بيت أكوشي Bit - Agushi . وسأقوم باجراء تحقيق في الصفحات القادمة لتحديد مواقع تخمينية لهذه الأماكن الثلاثة .

٢ ـ البدء في الاستيطان

ان الانتشار الواسع لأماكن الاستيطان الاولى التي امتدت من أريحا بفلسطين حتى وديان جبل كردستان وزاكروس Zagros تدل بوضوح على أن انسان العصر الحجري الحديث كان أقل ارتباطاً بقيود البيئة الطبيعية من خلفه إنسان العصر البرونزي . وفي الواقع ، فإنه من السهل دراسة القرى الأولية الصغرى لأن أكثرها يقع في مناطق مجدبة هجرها أهلوها فيما بعد . وهذا لايعني أنه حدثت تطورات في ظروف البيئة الطبيعية كالمناخ والنبات ، إلا أنه من المرجح أن سكان القرى في العصر الحجري الحديث ، على إعتبار أنهم كانوا يؤلفون جماعات صغيرة من الصيادين والمزارعين والرعاة ، كانوا أكثر قابلية للتلاؤم مع الطبيعة من جماهير العصر البرونزي . أما لماذا شرع انسان العصر الحجري الوسيط بالاستيطان ، فهذا مايصعب تعليله ويقتضي لذلك ، كما يقول الاستاذ بريد وود ، بضع سنوات أخرى من البحث العلمي لكي نتوصل إلى إجابة معقولة . ويرجح بعضهم أنه لاوجود لعلاقة تربط تصرفات الانسان بالبيئة

(١) ولا يعني ذلك ان الأصل الحضاري يجب أن يرتبط بعوامل سياسية نظراً لوجود الكثير من الاستثناءات التي تبرهن العكس .

الطبيعية . وخير تعليل لأسباب البدء بالاستيطان هو ما طرأ على الانسان من تغيير في عاداته وتقاليده ، دون أن يرتبط ذلك حتما بدوافع تتعلق بظروف البيئة الطبيعية .

ومهما كانت أسباب هذا التغيير في تصرفات الإنسان ، فإن استيطانه في القرى بدأ في وقت مبكر في جميع بقاع الشرق الأوسط . وعلى الأرجح ، كما يقول الاستاذ بريدوود ، بشكل جماعات مستقرة ، مع استمرار انتشار الجماعات المتنقلة من الصيادين في أماكن متفرقة بينها . بيد أنه مع مرور الزمن تقلصت المنطقة التي كان يزداد فيها عدد السكان وتزدهر الحضارة ، وتمركزت حول وديان الأنهار وأحواضها الصالحة لزراعة الحبوب ، بينما ظلت المناطق الصحراوية المجدبة والجبال المكسوة بالغابات متأخرة . وفي الغابات استمرت حضارة الانسان الصياد المزارع على نمط العصر الحجري الحديث مدة طويلة يستعمل أدوات خاصة لاتفترق كثيراً عن الأدوات المعروفة في العصر الحجري الحديث في أوروبا .

وهذا النوع من المواقع يشاهد في سفوح جبال لبنان الشرقية وجبال العلويين ، وخاصة في المناطق التي تبلغ فيها نسبة الأمطار ٥٠٠ ميلمتراً .

وأما المناطق الصحراوية فهي غنية بالمصنوعات الصوانية ، ونجد بينها السكاكين البدائية والصفائح الصوانية التي ترقى إلى عهود متأخرة غير معروفة .

وبخلاف هذه المناطق المجدبة ، فإن الأحواض الخصيبة التي تزرع فيها الحبوب لاتؤلف إلا جزءاً صغيراً من « الهلال الخصيب » في سورية . ويستنتج من ذلك أن قسما كبيراً من هذه المنطقة كان يضم باستمرار مراعي وأماكن للصيد طوال العصر البرونزي الحديدي .

وفي السهول الواسعة الخصيبة كتلك التي تقع في الجزيرة العليا ، وفي الوديان الضيقة كالخابور والبليخ ، فاننا نجد بأن المسافة بين التلال الرئيسية تبلغ حوالي (٤٠) ك.م ، بينها تلال هامة ثانية تقع في منتصف الطريق ، عدا التلال الاخرى التابعة لها . ومن المفيد أن نبين السبب في توزيع هذه التلال على هذا الشكل المنتظم وهو ما كانت تلعبه هذه الأماكن من دور هام في اتخاذها محطات لاستراحة القوافل أو مواقع دفاعية محصنة . ولكنني أود أن أربط مواقع هذه التلال في الدرجة الاولى بحاجة الجماعات المستقرة الى الرعي والزراعة .

ومن جهة أخرى ، فانه مما لاشك فيه بأن العديد من هذه المستوطنات ، بعد أن تستقر

فيها الجماعات وتزدهر ، تزداد أهميتها كثيراً بحكم سيطرتها السياسية على الدول المجاورة أو في كثير من الحالات بفضل موقعها الستراتيجي ، ولكن لم يحدث أبداً أن كان ذلك عن طريق تجارتها الداخلية . وأرى أن دور القلاع الستراتيجية يقتصر على عدد محدود من القلاع فقط .

٣ ـ دول المدن

نقلت الينا الياذة هومر المناوشات التي حدثت بين دول المدن في اليونان خلال العصر الحديدي ، وهذا مايتفق تماماً مع المناوشات التي حدثت في سورية . ولكننا نستطيع الحصول على معلومات أوفى تتعلق بظروف دول المدن من وثائق ماري (القرن الثامن عشر) ووثائق أوغاريت (القرن الثالث عشر) وكذلك من النصوص الآرامية (القرن التاسع وما بعده) . وينحصر اهتمامنا في الدرجة الاولى بالنواحي الاقتصادية والجغرافية المشار اليها في هذه النصوص .

وهناك مسألة هامة هي علاقة المزارع مع مالك الأرض في العصر البرونزي ، ويعتبرها المختصون في شؤون تطور الجماعات الزراعية من أهم المواضيع في يومنا هذا . ومدينة بابل نفسها المكتظة بالسكان لم تكن تفرض عقوبات شديدة على مغتصبي الأراضي . وأما في سورية فالظاهر أن الأرض لم تكن لها قيمة كبرى . فالحصان مثلاً أو الكلب من النوع الجيد كانا يساويان ضعف قيمة هكتار واحد من الأراضي الزراعية . والأراضي الخصبة كانت تساوي ثلاثة أمثال قيمة الأرض البور ، والكروم كانت تساوي في قيمتها ثلاثة أضعاف مثيلها من الأراضي الزراعية الخصبة . وكان الانتاج العادي يبلغ (٨) هـ . ل . من القمح لكل هكتار ، و (٥٠) هـ.ل. من النبيذ ، الأمر الذي يقارب ما هو عليه الحال في أيامنا هذه . وكانت الأرض رخيصة الثمن بعكس الحيوانات والصوف والمنسوجات فقد كانت غالية الثمن ، وهذا يدل على أن الأراضي كانت متوفرة وأن الثروة الحيوانية كانت نادرة أو مرتفعة الثمن .

وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين في البلاد ، وكانت المنتوجات الزراعية تشابه إلى حد ما منتوجات أيامنا هذه مع ملاحظة نقص الخضار والفواكه في العهود السابقة .

وحتى في المجتمعات التي تكون فيها وسائل الانتاج بدائية ، فإنه من الواضح أن تتباين في ثرواتها وبالتالي في اتساع مقار استيطانها ، وحيث يتوقع المرء انتشار المراكز الزراعية .

وتظهر لنا الصور الفوتوغرافية الجوية اتساع مستوطنات العصر البرونزي وشكلها بأدق التفاصيل ، ونستطيع في كثير من الحالات تمييز مركز العاصمة بسهولة ، ولكن قد يتعذر علينا ذلك في بعض الحالات الاخرى . فكثيراً ماتتعاقب المدن على التوالي في جعلها مركز عاصمة البلاد عندما يسيطر على الحكم أحد الامراء المحليين ، فتحتل إحدى المدن الصغرى مركز الصدارة وتصبح « المكان المقدس » أو تتحول إلى قلعة حصينة هامة ، وذلك بسبب أن عقلية سكان القرية وسكان المدينة تتغير من مكان الى آخر كما هو الحال في يومنا هذا ، أو بسبب وقوع المدينة الصغيرة قرب أحد مصادر المياه كالينابيع ومجاري الأنهار . والظاهر أن مثل هذه الأماكن كانت محببة لدى الملوك والأمراء ، وخاصة خلال مواسم معينة من العام .

وكل هذا لا يمكن تمييزه من الصور الفوتوغرافية الجوية ، إلا أننا نستطيع دراسة أشكال هذه التلول من معرفة إتساعها وشكلها . وقد استطعنا أن نميز في الخارطة المذكورة مجموعات مبسطة فقط ، بسبب صغر مقياسها ، وعرفنا العواصم والقلاع الهامة دون غيرها .

إننا لا نجد في سورية مدناً كبرى واسعة مثل مدن نينوي وبابل وسوس Suse ، فأكبر مدينة فيها لا يزيد اتساع رقعتها المسكونة عن ٧٥ الى ١٠٠ هكتاراً . وبالنسبة لسورية ، فقد تتحول مدينة لاتزيد مساحتها ٢٠ هكتاراً الى مركز للعاصمة . ونجد أن كثيراً من التلال العواصم لا يزيد ارتفاعها عن (١٠) الى (١٥) متراً ، كما أن كثيراً من القلاع لاتمتاز باتساع سطحها ، (من هكتار واحد الى عشرة هكتارات) ، ولكنها ترتفع كثيراً وبشكل شامخ عما يجاورها . ومن الطبيعي أن نجد بعض التلال وقد جمعت خصائص المدن والقلاع معاً ، مثل المدن التي تضم قلعة ضمن سورها الخارجي ، وهذا شائع في بعض أقسام سورية ، أو مثل المدن المحصنة التي لاتزيد مساحة سطحها عن (٢٠) هكتاراً .

٤ ــ المناطق الخصبة في سوريا

١ ــ الجزيرة

تعتبر هذه المنطقة من أكبر السهول في سورية التي لاتعترضها أية تضاريس وتنعم تربتها الخصبة بأمطار كافية لسد حاجتها الزراعية ، كما تتوفر المياه الجوفية القريبة من سطحها في كثير من بقاعها وتجتازها أنهار كثيرة أبرزها الخابور والجغجغ . وتظهر التلال ، الكبيرة منها والصغيرة ،

متناثرة في السهل الواقع بين جبل كراتشوك وجبل عبد العزيز بشكل يبدو غير منتظم ، إلا أننا نجد حوضاً صغيراً خاصاً لكل تل يقع في منطقة تقل فيهـا نسبة الأمطار . ومع ذلك فيصعب علينا أن نعزي انتشار التلال بكثرة الى سبب واحد هو خصب الأرض فقط ، ولكن يجب أن نضيف الى ذلك أيضاً تزايد عدد السكان الذي كان يلعب دوراً هاماً في هذا المجال ، لاسيما في العهد البرونزي القديم .

وفيما يلي ندرج أسماء بعض التلال والعواصم الواقعة في المثلث الذي يحصره نهرا الجغجغ والخابور ، وهما : تل نصيبين وتل براك ، بالاضافة الى تلال أخرى تأتي في المرتبة الثانية مثل مئيزر Mouaizar وحميدي وشاغر بازار . وفي شرقي نهر الجغجغ ، نجد ليلان Leilan وحموكار Hamoukar ، في المرتبة الاولى ، ثم تلال قراصا Qarasa ، ورميلان Roumylan في المرتبة الثانية . ومن أهم القلاع المجدل وبيدر وعيلون وبرى .

وهناك تلال أخرى تقع حول مستنقعات الراض ولكن لم يشر الى أي منها على الخارطة لأنها لا تتمتع بالصفات التي تجعلها في عداد « العواصم » .

ويجدر بنا أن نلفت النظر الى المنطقة التي تقل فيها نسبة الأمطار في غربي الخـابور ، حيث نجد عدداً من التلال الواسعة ذات الشكل المنتظم يتوسطها تل الخويرة [١] . وشكل هذه التلال ، بأسوارها التي تحيط بها ، ووقوعها في منطقة تقل فيها الأمطار ، كل هذا يدل على ان الاقوام الذين سكنوها كان بعضهم على الأقل يعيش على رعي المواشي . والظاهر ان هذه المنطقة بما فيها من مدن قد هجرها أهلوها في نهاية العصر البرونزي القديم .

٢ ــ حوض الفرات الاسفل وروافده :

دلت التحريات على أن القسم الأسفل فقط من وادي الفرات وروافده كان قابلاً للزراعة مع وجود بعض المراعي الصحراوية في الهضاب المجاورة . ويشمل هذا القسم مملكة ماري التي يكاد اقتصادها يعتمد اعتماداً كلياً على الزراعة . ومن الجدير ملاحظته في هذا المجال ان التلال تمتد على مجرى نهري الخابور والفرات ، بينما تنعدم في وادي نهر الفرات . ولعل السبب في ذلك يرجع الى عدم مكنتهم الاستفادة من مياه الفرات في ري أراضيهم ، لأن وسائل العصر

(١) ويعتقد الأستاذ مورتفات ، بعد ثلاث مواسم من الحفريات أجراها هناك ، ان التلال المستديرة ذات السطح المزدوج تمثل حضارة حورية من الألف الثالث قبل الميلاد .

البرونزي لم تكن من التقدم بشكل يمكن معه الاستفادة من الأنهار الكبرى . فلم يكن باستطاعتهم أن يقيموا فيها السدود لحصر المياه ، وبالتالي لم يكن باستطاعتهم إنشاء أقنية ذات شأن لسقاية مزروعاتهم الصيفية ، كما لم يكن بمقدورهم الاستفادة من المياه الجوفية القريبة بسبب ملوحتها ، ولم تكن تفيدهم مياه الفيضانات لأنها كانت تأتي متأخرة بالنسبة للمحاصيل الصيفية ومبكرة بالنسبة للمحاصيل الشتوية . وربما كانت الأراضي التابعة لمملكة ماري التي تقع على بعد ١٠٠ ك . م جنوبي الخابور تروى من الخابور نفسه بواسطة القناة المعروفة باسم قناة دور ـ ياهد ونليم Dur - Yahdunlim أيام ملوك ماري . إلا أن وقوع ماري العاصمة على الضفة اليمنى من نهر الفرات يضعنا أمام مشكلة كبرى ، وآمل أن أعود اليها في مقال مفصل قادم . ومن أهم مدن تلك المنطقة : عشارة ومسيخ ومشتلا والمروانية وحليم اسرا حجم Halim asra Hajim

٣ ـ حوض الفرات الأعلى والمناطق المجاورة

لما كانت كميات الأمطار هنا كافية لتأمين المحاصيل الزراعية البعلية ، فإن التلال والأراضي المزروعة انتشرت لا في وادي الفرات فحسب بل في الأراضي المرتفعة المجاورة له أيضاً . والظاهر أن هذه التلال قد استمدت أهميتها على الغالب من موقعها الستراتيجي على مفترق الطرق ، ولم تكن كبيرة في مساحتها بل كان لها أسوار دفاعية واسعة .

وتقع قرب الفرات الينابيع المسماة عين العرب التي كانت تمد ارسلان طاش بالمياه ، وهو تل هام يقع في وسط سهل خصيب .

٤ ـ الجبول والمضخ وقويق

تضم سوريا الشمالية مناطق ثلاث ذات تربة خصبة حمراء ومياه جوفية سهلة المنال ، تفصل بينها مرتفعات صخرية . اثنتان منها تقعان في منخفض تتوسطه بحيرة مائية ، هما الجبول في الشرق والمضخ في الجنوب ، بينما تقع المنطقة الثالثة في الشمال ، على امتداد مجرى نهر قويق وروافده . أما مدينة حلب فانها تتوسط هذه المناطق الثلاثة وتقع في وادي نهر قويق الضيق . ويجدر بنا الاشارة الى تل كبير ، من نوع الـ ٢٥ هكتارا يقع في شمال بحيرة الجبول ، والى ثلاثة تلال رئيسية تقع في غرب المضخ ، اثنان منهما من نوع الـ ٥٠ هكتارا ، والثالث من نوع الـ ٢٥ هكتار من المساحة . أما في سهول نهر قويق شمالي حلب ، فلا توجد تلال رئيسية (وهذه هي المنطقة التي اتجه اليها الظن لتحقيق وجود مدينة ارباد فيها ، في موقعي تل رفعت وتل اخترين مثلا) . ولا شك أن مدينة حلب نفسها لا يمكن أن تعتبر مركزاً رئيسياً لتجمع السكان بل قلعة من أهم القلاع في المنطقة .

٥ ـ حوض العاصي بما فيه الغاب والروج :

يبرز تلان رئيسيان في السهول الخصيبة لمجرى نهر العاصي الأوسط يقعان في وادي النهر الرئيسي هما تل حماه وتل العشارنة ، وكلاهما من نوع الـ ٥٠ هكتاراً [١] وفي القسم الشمالي من وادي الروج والغاب يقع تل قسطون الذي يسود سائر التلال في المنطقة . أما تل العمقية ، وهو تل صغير قوي التحصين ، فيقع في العمر الضيق الكائن بين جبال الزاوية وبحيرة الغاب .

٦ ـ حوض بردى والاعوج :

لا توجد تلال رئيسية في حوض بردى والأعوج ، إلا أن اثنين منها يلفتان النظر ، هما تل الصالحية وتل الخابية ، وتأتي أهميتهما فى الدرجة الثانية من حيث المساحة .

وعدم وجود التلال في منطقة دمشق يدل على أن شبكة الأقنية التي تروي غوطة دمشق حالياً لم يتم إنشاؤها إلا في وقت متأخر . ولقد جاءت وثائق ماري خالية من أي ذكر لمدينة دمشق ، إلا أنها كانت مركزاً هاماً في عصر تل العمارنه ، واستمرت كذلك في العهود الآرامية وما بعدها . ولا بد أن حوض دمشق خلال العصر البرونزي القديم والعصر البرونزي المتوسط كان يتألف من مراعي صحراوية ، وقد استقر في قسمه الأوسط جماعة بشرية صغيرة التفت حول تل الصالحية ، وتفرقت في أماكن تابعة له لا يتجاوز عددها بضع عشرة مكانا .

٧ ـ حوران :

تتمتع حوران بتربة حمراء خصبة لا تضاريس فيه ، ولكننا لا نجد فيه أية تلال بسبب عمق مياهه الجوفية الذي يبلغ (٨٠) متراً أو يزيد . والتلال الوحيدة التي نشاهدها ، وهي صغيرة الاتساع ، تقع على امتداد وادي الحرار كتل شهاب مثلا . ولا بد أن سهل حوران كان خلال العهد البرونزي والعهد الحديدي يتألف من أراضي غنية بالمراعي ، وقد تجمع فيها ، كما يظن ، عدد وافر من الرعاة نصف المتحضرين .

٨ ـ السهول الساحلية :

أما بشأن المنطقة الساحلية ، فلعل الحال يقضي باتباع قواعد أخرى تختلف قليلاً عن غيرها من المناطق ، لأن العوامل التجارية هنا تلعب دوراً أكثر أهمية منه في الأقسام الداخلية من سورية ، بيد اننا نرى بأن التلال الرئيسية في هذه المنطقة تقع في السهول فقط لا في الجبال ،

(١) وليست قلعة حماه إلا جزءاً من هذا التل القديم الأول .

مثل تل رأس شمرة في السهول الواقعة في شمال اللاذقية ، وتل سميرا في بقعة غير ظاهرة في سهل عكار . وهناك تل رئيسي يقع في السهول المجاورة لجبلة يسمى قلال الروس .

والجدير بالملاحظة أن التلال الواقعة في هذا القسم الساحلي صغيرة ، بما في ذلك التلال الهامة منها .

٥ ـ المناطق الحضرية الأولى المتخلفة

لا بد لنا من الإشارة هنا الى المناطق المجدبة التي لم تخل من بعض السكان المتفرقين . فلقد أخذ سكان العصر الحجرى الوسيط في وقت مبكر ، إلا أنه من المعتقد أن تغييراً جذريا حدث فيما بعد ذلك مباشرة . فلقد تأخرت المناطق الريفية الفقيرة في تقدمها ونموهـا ، لا لأسباب فنية أو اجتماعية ، بل لأسباب تعود الى عدم ملائمة البيئة الطبيعية لها . وليس من السهل تحديد اسم واحد مشترك لجميع هذه الحضارات المعنية معاً . وربما كان من المفيد أن نعتبرها ذات طابع حضاري أولي ، تضم بينها جماعات صغيرة قروية منعزلة ، كانت تعيش على طريقة تشبه طريقة العصر الحجري الحديث مع استمرار وجود نسبة كبيرة من الصيادين والرعاة المتنقلين . ونجد في الطبقة السطحية لكثير من الأماكن المنتشرة في البادية كما في الصحراء ، بقايا أدوات حجرية تعود الى بقايا سكنية لجماعـات متنقلة أو نصف مستقرة . وقد أسفرت التحريات العلمية التي أجراها بوليو Beaulieu في جبل الدروز عن اكتشاف ١٠٧ مراكز سكنية نسبها الى حضارة فقيرة غير قديمة جداً من الرعاة المتنقلين ، على اعتبار أن أدواتهم التي استعملوها لم تكن خاصة بالمزارعين أو بالصيادين . كما اكتشفت مواقع أخرى مماثلة بطريق الصدفة في كل من حوران ومنطقة حمص وحماه وفي الصحراء الواقعة شمالي تدمر وفي حوض الرصافة . كما عثر على مجموعات أخرى تتضمن رؤوس سهام ومناجل مما يدل على أن بعض الصيـادين والمزارعين كانوا من بين هؤلاء السكان المتنقلين .

وإلى جانب هذه المواقع السكنية المشار اليها ، كانت توجد قرى أخرى من نوع المزارع ، وهي تشاهد على شكل تلال صغيرة قليلة الارتفاع في المناطق الفقيرة من البادية . ولم تجر في أي منها حتى الآن في سورية حفريات رسمية للاستدلال على تاريخها ولكن اللقى التي عثر عليها في سطح هذه التلال تدل على عصور متأخرة ، برغم إمكانية وجود تباين كبير بينها . ولعله من المفيد أن نعرف بأن الأنصاب الصخرية الكبيرة Megalith العائدة للعصور الحجرية تشاهد هذه الأماكن الفقيرة من سورية .

٦ — التنظيمات بين الدول

لقد كان من الطبيعي أن تتجه الدولة الأقوى بين دول المدن للسيطرة على جيرانها من الدول الضعيفة لتؤلف وحدة كبرى فيما بينها . ولم يكن الدافع الى ذلك في كثير من الحالات سوى الرغبة البشرية في حب السيطرة ، ولكن قد يكون الدافع الى ذلك الرغبة في تحقيق مصلحة البلاد ، إذا توفر الحاكم الصالح ، الأمر الذي لا يختلف كثيراً عن يومنا هذا . فالملك حمورابي نفسه ادعى في مقدمة قانونه الشهير انه حكم شعوبه دومـــاً كملك عظيم بالعدل والقسطاس بالنسبة للجميع ، بما في ذلك الملونين منهم .

ولسنا نجد أيا من القوى الكبرى القديمة كان لها باع طويل في مجال الحضارة والتحضير مثل الحثيين والآشوريين .

ولقد بنى الحثيون خطاً دفاعياً يتألف من مدن وقلاع ذات أسوار مربعة يمتد من تل النبي مند على العاصي وعلى طول خط مستقيم حتى يوسف باشا على الفرات ، بينها مدينة قطنا التي تعتبر من أشهر القلاع المعروفة . وكان هذا الخط الدفاعي يستعمل لصد هجمات المصريين وغزوات البدو على السواء . وربما أعادوا ، بالاضافة الى ذلك ، بناء الأسوار الدفاعية لكثير من المدن والقرى الواقعة في غربي سورية حيث يسود نظام الأسوار الرباعية أو الخماسية الأشكال .

وتبلغ مساحة رقعة كل من قطنا وقادش ١٠٠ هكتارا ، بينما لا تزيد مساحة غيرهمـا من القلاع على ٢٠ هكتارا .

وفي المناطق الشمالية والشرقية من الفرات ، كما في المنطقة الغربية منه ، توجد قلاع حصينة يحيط بها سور خارجي مستدير كما هو الحال في الباب ومنبج وتل برسيب وبندر خـــان . ويجدر ملاحظة العمل الرائع الذي قام به العسكريون الآشوريون في هذا النوع من المنشئات الدفاعية .

والظاهر أن القلاع الارامية كانت تتبع شكلاً أقل انتظاماً من غيرها من القلاع .

٧ — آراء جديدة في التحقيق عن مواقع شوباط انليل وواشوكاني وارباد

إذا نظرنا الى التلال المشار اليها على الخارطة ، يتبين لنا أن الوقت قد حان للقيام ببعض المحاولات لتخمين مواقع هذه العواصم الثلاث المعروفة في النصوص الكتـابية ولا تزال مجهولة

لدينا . وليس من المحتم علينا أن نبحث عن هذه العواصم في طيات التلال الكبيرة فقط ، و بين التلال المرتفعة . وخير ما يمكن أن نفترضه في الوقت الحاضر ما يلي :

شوباط Subaat Enlil

كثيراً ما ينسب تل شاغربازار الى موقع هذه العاصمة الآشورية في عهد شمشي عدو Shamshi Addu لقد سبق أن أشرت في إحدى مقالاتي إلى بعض الشكوك التي تساور هذه النظرية ، واقترحت موقع تل الحميدي على الجغجغ بدلاً منه . والآن بعد أن أعدت النظر في الموضوع عن كثب ، أرى أن أقترح تل ليلان Leilan ، على بعد ٣٠ ك . م . شرقي تل الحميدى ، موقعاً لمدينة شوباط انليل القديمة ، للأسباب التالية : —

إن تل ليلان هو تل واسع كبير تبلغ مساحته في القسم الواقع داخل الأسوار (٩٠) هكتارا ، وفي داخله تل آخر مرتفع ، بجانبه قلعة أو ما يشبه الزقورة . يضاف الى ذلك انه يقع في ملتقى ثلاثة وديان أهمها وادي الجراح ؛ لذلك فهو مزود تزويداً جيداً بالمياه . واستناداً إلى ما حققه الأستاذ دوسان مؤخراً من وجود مدينة كحت في تل بري على الجغجغ ، فإن ذلك يتفق تماماً مع ما جاء في مراحل وثائق اوربانا Urbana .

أما الطريق الرئيسي الواصل بين شوباط انليل وماري فيحتاج الى مزيد من الايضاح ، ونستطيع تحديد مراحل الوقوف الرئيسية فيه كما يلي :

١ — مشتلا Mashtala على الضفة اليسرى من الفرات ، وهي تل هام يتألف من قسمين ، تفصل بينهما ما يحتمل أن يكون قناة رئيسية .

٢ — سكاروتيم Segarutim ، وأغلب الظن أنها تل فدين Fedain على الخابور .

٣ — مركده .

٤ — تل عجاجه = عربان = سادقني Sadikanni arban ajaja .

٥ — قطونان Qattunan تل مجدل التي كانت ولا شك معبراً رئيسياً على الخابور خلال عدة قرون . ويلاحظ ان كل الطرق الآتية من الشمال أو من الجنوب تتجمع في الجدل .

٦ — تل براك اوتل بري . وكانت تله Tille المحطة الطبيعية للوقوف وهي آخر محطة تقع قبل شوباط انليل ، وهذا ما يتفق مع موقع تل براك .

٧ — شوباط انليل .

فإذا كان صحيحاً ما افترضناه من وقوع شوباط انليل في تل ليلان واور كيش في تل عمودا ، فإننا نستطيع أن نتعرف على المحطات المذكورة في سجلات اوربانا ونعين موقع سنعا Sunaa في تل نصيبين ، وحارسي Haarsi في تل حميدى ، وأشناكوم Asnakkum في تل شاغر بازار .

واشوكاني Washukhanni

إن الدلائل المتوفرة لدينا لتحديد موقع مدينة واشوكاني أقل من الدلائل المتوفرة لموقع شوباط انليل . بيد انه يوجد تل كبير واحد في الجزيرة يتمتع بخصائص غريبة ويمكن اقتراحه ، مع درجة كبيرة من الاحتمال ، ليكون موقعاً لمدينة واشوكاني ، ذلك هو تل حموكار الواقع قرب الحدود العراقية ، وفي الجهة الشرقية من مستنقعات الراض . وهو تل صغير محصن يمتد بشكل غريب الى ما حوله . وهذه المدينة تقع في منخفض ويحيط بها خندقان وسوران دفاعيان . وتشير الكِسَر الفخارية المنتشرة على سطحه الى العهد البرونزي المتوسط . أما ما حدث من امتداد المدينة وتوسعها بصورة فجائية خلال العصر البرونزى المتوسط فهو دليل على أن تل حموكار هو الموقع المحتمل لمدينة واشوكاني .

ارباد Arpad

أما ارباد فيجب أن نبحث عنها في شمالي مدينة حلب أو في شرقيها . ولن نستطيع أن نختار أيا من التلال الثلاثة الواقعة في جنوبي حلب لأن أحدهما قد اختير ليكون موقعاً لمدينة خزرق ، وبالتالي فان حوض المضخ هو ما كان معروفاً باسم لعش ، وهي ولاية أخرى مجاورة . ولكن التل الوحيد الذى تظهر عليه امـارات العواصم بالنسبة لحجمه هو تل (أم المرا) الواقع في شمالي بحيرة الجبول ، على منتصف الطريق تقريباً بين حلب ومسكنه ، وهو تل مستدير يبلغ قطره (٥٠٠) مترا .

آراء حول مواقع أخرى

وهناك آراء أخرى حول تحديد بعض المواقع الأخرى مثل مدينة (تتول) في موقع تل البيعة ، ومدينة ايمار في موقع مسكنة ، ومدينة خزرق في موقع تل ايفز ، ويظهر أن الرأي قد استقر عليها ولا نحتاج إلى التعليق عليها من جديد ، ولم تجر فيها أية حفريات رسمية بعد .

٨ ـ العصر الكلاسيكي

أطلت سورية بعد فتوحات الاسكندر الكبير على عهد جديد يحمل روحاً جديدة ، كل ما فيها ثوري ، استمرت خلال العصور التالية ، يمكن أن تسمى « نمط الحياة الكلاسيكية » . ولقد تسربت الأفكار الجديدة الى كل نواحي المجتمع ، وزالت من الوجود دول المدن ذات الاكتفاء الذاتي ، وأنشىء العديد من المدن الجديدة ، لا على اساس مواقع الانتاج الزراعي ، كما كان الحال عليه في السابق ، بل على أساس طرق القوافل والمواقع التجارية والستراتيجية . وكذلك أنشئت الطرق بصرف النظر عن موقعها بالنسبة للصحارى والجبال . ثم استثمرت فيما بعد الأراضي الجديدة ، بفضل تطور الأساليب الجديدة في حفر الآبار العميقة ، وذلك وفق نماذج محددة لم تكن لتعير كبير اهتمام الى خصائص الأرض الطبيعية . وقد شمل هذا التطور المناطق المجدبة . فاستثمرت ، واستثمرت إلى أبعد الحدود . والظاهر انه ظهر في هذا العهد عدد من المهندسين البارعين الناشئين قاموا بتطوير الأراضي ولكن دون أن يمروا بتجربة البحث عن واقع الأمور . وهذا مالا نستطيع تفسيره بتقدم الأساليب العلمية فقط بل يجب أن نعزيه في الأساس الى تغيير جذري في فلسفة ذلك العصر ، سميناها في مطلع هذه الفقرة باسم « نمط الحياة الكلاسيكي » ، والذى لا يزال سائداً لدى إنسان العصر الحديث .

وهكذا فإن جميع الأراضي الواقعة في حوض غربي الفرات وسهوله والتي تزيد فيها نسبة الأمطار على ٢٠٠ ميليمتراً قد تحولت أخيراً إلى أراض زراعية . ولا تزال ترى على الصورة الفوتوغرافية مجموعتان كبيرتان من الأراضي المحددة بشكل هندسي ، إحداهما في شمالي حلب ، والثانية في الجنوب تتوسطها مدينة حمص . أما حوران التي أصبحت جزءاً من المدن العشرة ، فقد تحولت كلها الى أراض زراعية ، ولكن لم تكن هنا مقيدة بالأشكال الهندسية المعروفة ، برغم أنها لازالت تحافظ على شكلها الرباعي العام .

وأما البساتين الواقعة حول مدينة دمشق القديمة ، وهي مدينة من الطراز الكلاسيكي ، فإنها لازالت تحتفظ بطابع تخطيطها الكلاسيكي حتى يومنا هذا . ولقد قام العالم (بوادوبار) قبل الحرب الأخيرة بدراسة آثار مدن العهد الكلاسيكي في البقاع المجدبة بسورية ، من الصور الفوتوغرافية الجوية . ولا شك أن الصور الجوية الحديثة ستظهر لنا مزيداً من آثار هذه المدن ، وأملنا كبير في الحصول على دراسة أوفى عن آثار سورية في المستقبل القريب .